تطور الحركة المكتبية
في عهد الملك عبدالعزيز(*)

أ. د. سالم بن محمد السالم
قسم المكتبات والمعلومات - كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

من حسن التوفيق أن المملكة العربية السعودية قد شهدت في عهد الملك عبدالعزيز - رحمه الله - تطورات في مختلف المجالات، يعنينا منها في الدراسة الحالية ما له علاقة بمجال المكتبات. وقد كان الدافع إلى القيام بهذا العمل العلمي هو ما لحظه الباحث من ندرة الاهتمام بهذا الموضوع الحيوي والمهم، ذلك أن الجوانب الأخرى لتاريخ الملك عبدالعزيز قد لقيت عناية تليق بأهميتها، في حين ظل جانب المكتبات مهملاً أو شبه مهمل فيما عدا إشارات متناثرة هنا وهناك قد لا تفي الموضوع حقه، ولا تجيب عن جميع الاستفسارات التي تدور في أذهاننا حول هذا التاريخ العريق.

ومن هذا المنطلق نبعت فكرة هذه الدراسة التي ترمي إلى رصد ظاهرة حضارية مهمة، وتوثيق ما يرتبط بها من عوامل مساندة، وبخاصة إذا أخذ في الحسبان ندرة الأدبيات التي تناولت الموضوع قيد البحث. والحقيقة أن المجال ما يزال بحاجة إلى المزيد من الإسهامات العلمية التي تكشف النقاب عن كثير من معالمه المجهولة. إذ ما تزال معلوماتنا حول تاريخ المكتبات في المملكة ناقصة، وذلك

(*) بحث قدم لندوة نشأة المكتبات في المملكة العربية السعودية التي أقامتها دارة الملك عبدالعزيز بتاريخ ٢٩/١١/١٤٢٠هـ بقاعة الملك عبدالعزيز للمحاضرات في مركز الملك عبدالعزيز التاريخي بمناسبة اختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٠م.

بسبب شح المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في الكتابة عن هذه الظاهرة، إضافة إلى أن أغلب المعلومات عنها غير موثقة، حيث ما تزال حبيسة في صدور المعمرين الذين عاصروا بدايات النهضة الثقافية والتعليمية في المملكة.

والهدف من هذه الدراسة هو التعرف على ظاهرة المكتبات في عهد الملك عبدالعزيز، ورصد حركتها، والكشف عن التطورات التي مرت بها، ودراسة مختلف الجوانب المتعلقة بها، والعوامل التي أسهمت في نشأتها، وبيان مدى قيامها بالدور المناط بها في إنعاش الحياة العلمية والفكرية، وذلك بغية إبراز صفحة من تلك الصفحات المشرقة لتاريخ المملكة في الفترة الزمنية المحددة للدراسة.

ومن بين أبرز الأسئلة التي يرمي الباحث إلى الإجابة عنها في هذا المشروع العلمي ما يأتي:

١ - كيف كان وضع المكتبات في المملكة قبل عهد الملك عبدالعزيز ؟

٢ - ما أبرز العوامل التي طبعت عهد الملك عبدالعزيز، ومهدت بدورها لإنعاش الحركة المكتبية ؟

٣ - ما أهم المكتبات التي نشأت في عهد الملك عبدالعزيز ؟

٤ - ما أهم التطورات التي شهدتها الحركة المكتبية في ذلك العهد ؟

٥ - ما الدور الذي قامت به تلك المكتبات في إثراء الحركة العلمية والثقافية ؟

وبغرض الإجابة عن الأسئلة السابقة، وتحقيق الهدف المنشود للدراسة فقد استخدم الباحث المنهج التاريخي بوصفه أنسب منهج يمكن توظيفه لمعالجة الظاهرة قيد البحث، وتم جمع المعلومات الضرورية من عدة مراجع ومصادر أساسية وثانوية، وذلك بعد مرورها بمرحلة النقد الخارجي والداخلي. واعتمد الباحث بشكل

رئيس على استقراء ما استطاع الوقوف عليه من أدبيات باللغتين العربية والإنجليزية على ندرتها، وما هو موثق في بعض نظم المعلومات الحديثة من حقائق تاريخية(١). ويدخل في نطاق هذه الدراسة جميع أنواع المكتبات التي نشأت في عهد الملك عبدالعزيز (١٣١٩ - ١٣٧٣هـ/ ١٩٠٢ - ١٩٥٣م)، أو وجدت في ذلك العهد (بمعنى أنها نشأت قبله، ولكنها ظلت قائمة في ذلك العهد، وربما نالها شيء من التطوير خلاله).

وقد تمثلت الخطوة الأولى في معالجة الظاهرة قيد الدراسة في الاطلاع على ما سبق من جهود ومحاولات علمية ذات صلة وثيقة بالموضوع، وثبت من مسح الدراسات السابقة واستقراء ما توصلت إليه من نتائج أن الموضوع الذي نحن بصدده لم يحظ بدراسة مستقلة، بل ورد ضمن دراسات أخرى تتحدث عن الحركة العلمية والأدبية والثقافية في المملكة، وعن تاريخ الملك عبدالعزيز بشكل عام، إضافة إلى بحوث قليلة تناولت تاريخ الحركة المكتبية في المملكة(٢).

كما ثبت من استقراء المعطيات التي خرجت بها المحاولات السابقة أنها على الرغم مما توصلت إليه من نتائج تضيف أبعادًا جديدة إلى تاريخ المكتبات السعودية فإنها تظل محدودة في نطاقها المكاني أو الزمني أو الموضوعي أو الشكلي، وتفتقر إلى النظرة التكاملية في

---

(١) تم الرجوع بشكل خاص إلى السجل الحولي بدارة الملك عبدالعزيز، ونظام الوثائق بمعهد الإدارة العامة، حيث إنهما يحتويان على الأوامر الملكية السامية والقرارات التي أصدرها مجلس الشورى ومجلس الوكلاء بخصوص المكتبات في عهد الملك عبدالعزيز. ويعتمد هذان المصدران على الترتيب الموضوعي للوصول إلى المادة العلمية حيث يرصدان التطورات التاريخية المتعلقة بكل موضوع .

(٢) من بين تلك البحوث القليلة - على سبيل المثال لا الحصر - التي صدرت عن متخصصين، وتناولت حركة المكتبات في المملكة دراسة حمادي محمد علي التونسي بعنوان "المكتبات العامة في المدينة المنورة: ماضيها وحاضرها" وهي في الأصل رسالة ماجستير أجازها قسم المكتبات والمعلومات بجامعة الملك عبدالعزيز عام ١٤٠١هـ، ودراسته الأخرى بعنوان "المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر" التي نشرتها مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية (مج ٢، ع ١ المحرم - جمادى الآخرة ١٤١٧هـ، ص ص ٦٠ - ٨٩).

المعالجة، الأمر الذي يوحي بأنها لم تقدم صورة شمولية لوضع المكتبات في عهد الملك عبدالعزيز. ذلك أن بعضها اقتصر على دراسة المكتبات في منطقة محددة(٣)، أو في إطار حالة بعينها(٤)، كما أن بعضها الآخر ركز على نمط معين من أنماط المواد التي كانت تحتضنها تلك المكتبات(٥).

وبعض تلك الدراسات تناول قضية المكتبات ضمن قضايا عديدة تمس تاريخ المملكة بشكل عام وتاريخ الملك عبدالعزيز بشكل خاص(٦)، ومنها ما خصص حيزًا صغيرًا للحديث عن المكتبات ضمن الحديث عن الحركة الأدبية في المملكة بشكل عام(٧). والصورة الإجمالية التي نخرج بها من إلقاء نظرة فاحصة على ما سبق من دراسات هي أنه يغلب عليها العمومية في المناقشة، مما يوحي بأن الظاهرة لم تعالج بشكل منفرد وبالأسلوب الذي يليق بأهميتها. وقد حاول الباحث في الدراسة الحالية تلافي هذا التقصير المنهجي من خلال التعامل مع القضية محط البحث على أنها حالة تستحق دراسة مستقلة تتناولها من مختلف جوانبها.

---

(٣) انظر على سبيل المثال: عبدالله بن حسين بن محمد أبو داهش. الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية: ١٢٠٠ - ١٣٥١هـ/ ١٧٨٥ - ١٩٣٢م. ط ٢. أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٠٦هـ.

(٤) أقرب أنموذج لهذا النوع من الدراسات دراسة فهد بن عبدالله السماري عن مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة التي نشرتها دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤١٧هـ.

(٥) مثال على ذلك المرجع التالي: يحيى محمود ساعاتي. وضعية المخطوطات في المملكة العربية السعودية إلى عام ١٤٠٨هـ. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٤هـ.

(٦) انظر: خير الدين الزركلي. شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز. الجزء الثالث. ط ٦. بيروت: دار العلم للملايين، ١٤١٤هـ، حيث خصص أحد فصول الكتاب للحديث عن المكتبات في أيام الملك عبدالعزيز، ص ص ١٠٣٥ - ١٠٤٦.

(٧) لعل أفضل مصدر - على حد علمي - في هذا الصدد هو: عبدالله عبدالجبار. التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية. القاهرة: جامعة الدول العربية، ١٣٧٩هـ.

الإرهاصات الأولى :

لم تكن أرض المملكة خلوًا من المكتبات حينما تسلم الملك عبدالعزيز القيادة، حيث إن هناك مجموعة من الإرهاصات الأولية التي سبقت عهده رحمه الله، والتي مهدت لظهور المكتبة، وللعناية بجمع الكتب وتنظيمها في أماكن خاصة بها بغرض تيسير استخدامها، وجعلها في متناول الراغبين والمهتمين. وفي ضوء هذه الحقيقة فإن من المستحسن تسليط الضوء بشكل عاجل وموجز على الوضع الذي كانت عليه المكتبات قبل عهد الملك عبدالعزيز، وذلك في مختلف مناطق المملكة بما فيها الحجاز ونجد والجنوب والأحساء.

ففيما يتعلق بمنطقة الحجاز فإن ظهور المكتبة فيها يعود إلى فجر الإسلام، حيث كانت البداية في المدينة المنورة التي شهدت ظهور أول مخطوط عربي عندما تم جمع القرآن الكريم على صحائف من الرق، ومن ثم استنسخت منه مجموعة من المصاحف وزعت على بعض العواصم الإسلامية في عصر عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ومن ثم بدأت حركة تدوين الحديث الشريف مما نتج عنه مجموعة من الكتب التي شكلت البنية الأساسية لإنشاء المكتبة الإسلامية في ذلك الوقت المبكر(٨).

ويحدثنا التاريخ أنه قد أنشئت في مكة المكرمة مكتبة عامة في أواخر القرن الأول الهجري، وبعد ذلك أنشئت مجموعة من المكتبات في القرون الهجرية التالية في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة(٩).

---

(٨) يحيى ساعاتي، وضعية المخطوطات، ص ١٤ .

(٩) لمزيد من التفصيلات حول هذه القضية يمكن الرجوع إلى: محمد بن عبدالله أبو الوليد الأزرقي. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق رشدي صالح ملحس. ط٤. الجزء الثاني. مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٤٠٣هـ. ص ٣١٢، حيث يذكر فيه أن سيلاً دخل الحرم المكي الشريف عام ٤١٧هـ / ١٠٢٦م ووصل إلى خزائن الكتب وأتلف منها الشيء الكثير .

كما كان لدى بعض الأسر العلمية المعروفة في منطقة الحجاز مكتبات ضخمة، ولعل أبرز أنموذج لهذه الظاهرة هو أسرة بني فهد بمكة المكرمة التي كانت تمتلك مكتبة قيمة تشتمل على نوادر الكتب، ويتاح استخدامها لعموم الباحثين وطلبة العلم(١٠). وبعض المكتبات التي أنشئت في تلك الفترة كانت موقوفة على الأربطة والمدارس مثل رباط ربيع، ورباط الخوزي، ورباط السدرة، ورباط الصفا وغيرها من الأربطة الأخرى.

وأسهم بعض الملوك والحكام المسلمين بتزويد مكتبة الحرم المكي بنفائس المخطوطات ونوادر الكتب. ووجدت بعض الخزائن التي كانت مفتوحة للعامة، ويسمح بدخولها والمطالعة فيها مجانًا، وربما خصص معظمها مرشدين يساعدون القراء في الحصول على المصادر التي يحتاجونها(١١).

كما حظيت المدينة المنورة على مر العصور بمكتبات قيمة، من أهمها مكتبة الحرم النبوي الشريف التي تكونت مجموعاتها من أوقاف الملوك والحكام والعلماء والأثرياء، إذ كانت في الحرم عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م خزانتان كبيرتان تحتويان على كتب ومصاحف موقوفة(١٢).

ويقال: إن مكتبات المدينة المنورة بلغت في أواخر العهد العثماني ٨٨ مكتبة تشمل المكتبات المدرسية، والمكتبات الخاصة، ومكتبات الأربطة، إلا أن ما تعرضت له المدينة من فتن وأحداث كثيرة كان سببًا في ضياع مكتباتها وتبعثر مخطوطاتها، وقام تجار الكتب بنقلها إلى بلدان

---

(١٠) محمد الحبيب الهيلة. التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر. لندن: مؤسسة الفرقان، ١٤١٥هـ، ص ١٠٢، ١٣٨ .

(١١) هشام بن عبدالله عباس. الركائز الأساسية للنظام الوطني للمكتبات العامة بالمملكة العربية السعودية. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٤هـ، ص ١٤.

(١٢) عبدالله الماجد. المكتبات في جزيرة العرب. العرب. س ٢، مج ١٠ (ربيع الثاني ١٣٨٨هـ). ص ٨٩٥ .

آسيا وأوربا حيث بيعت بأثمان بخسة(١٣)، وما بقي من تلك المكتبات ضم فيما بعد إلى مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في المدينة المنورة.

وإذا كانت غالبية مكتبات الحجاز قد تعرضت قبل العهد السعودي للسطو والنهب فإن هذا العهد استطاع بفضل الحكمة التي امتازت بها قيادته أن يحافظ على تلك النفائس النادرة، ويصونها من عبث العابثين(١٤)، بدليل أن مكتبة عارف حكمت، والمكتبة المحمودية، ومكتبة الحرم المكي الشريف، ومكتبة عبدالله بن العباس، وغيرها من المكتبات الأخرى التي وجدت قبل عهد الملك عبدالعزيز استمرت في أداء رسالتها في ذلك العهد، بل إنه نالها شيء من التطوير في الخدمات كما سيتضح فيما بعد عند الحديث عن تطور حركة المكتبات.

فإذ تجاوزنا الحجاز إلى منطقة نجد، وجدنا أنها شهدت منذ الدولة السعودية الأولى اهتمامًا بجمع الكتب وتكوين نواة المكتبة، فقد عرف عن قادة آل سعود الأوائل تقديرهم للعلماء وعنايتهم بالكتاب، ومنذ آوى الإمام محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبدالوهاب عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م والشيخ منهمك في كتابة المؤلفات ونسخ الرسائل التي ربما كانت البذرة الأولى لتكوين المكتبة في هذه المنطقة. وكان للشيخ محمد مكتبة حوت مختلف العلوم مما يدل على وجود حركة مكتبية، وعلى وجود العلماء الذين كان لهم اهتمام بجمع الكتب، وتكوين المكتبات الخاصة(١٥)، وذلك بفضل النمو العلمي الذي شهدته المنطقة حينذاك، وتشجيع قادة الدولة السعودية الأولى للتعليم.

---

(١٣) يقال: إن أمين حسن الحلواني نقل آلاف الكتب إلى أوربا في رحلته إليها سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م حيث اصطحب معه مخطوطات نادرة اشترتها منه كبريات المكتبات في تلك الدول، وكونت منها مكتبات ضخمة. انظر: عبدالله عبدالجبار، التيارات الأدبية، ص ١٩٣ .

(١٤) أحمد عبدالغفور عطار. قطرة من يراع. مكة المكرمة: المطبعة المنيرية، ١٣٧٥هـ، ص ص ٦٣ - ٧١ .

(١٥) مي بنت عبدالعزيز العيسى. الحياة العلمية في نجد منذ قيام دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وحتى نهاية الدولة السعودية الأولى. الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٧هـ، ص ٢٨٧ .

ويؤكد هذه الحقيقة عبدالله العثيمين الذي أشار إلى بعض المكتبات التي وجدت في الدولة السعودية الأولى والثانية، وذلك في معرض حديثه عن العلم والتعليم، حيث يقول في هذا الصدد: "وقد بلغ حرص قادة الدولة السعودية الأولى على التعليم أنهم كانوا يصطحبون معهم في الغزوات علماء يعقدون مجالس علمية ينتفع بها أفراد الجيش الغازي. وبجهود أولئك القادة، وإخلاص علماء البلاد ازدهرت الحياة العلمية ازدهارًا عظيمًا، ووجدت في الدرعية بالذات مكتبات قيمة ضمت كتبًا كثيرة في موضوعات علمية مختلفة"(١٦).

وكان للإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود اهتمام بارز بجمع الكتب، واستطاع تكوين مكتبة خاصة غنية بمجموعاتها، ولم يكن ابنه الإمام سعود أقل اهتمامًا منه في هذا الجانب، حيث إنه سار على السياسة التي رسمها والده في احترام العلم وتقدير العلماء. ووجدت خلال تلك الحقبة بعض المكتبات الخاصة للأسر العلمية المعروفة مثل مكتبة آل الشيخ، ومكتبة آل إسماعيل، ومكتبة آل عبدالجبار في المجمعة، ومكتبة عبدالعزيز بن سليمان بن عبدالوهاب في حريملاء، ومكتبة آل راجح في الجواء(١٧). ومما هو جدير بالذكر أن تلك المكتبات الخاصة كانت تقوم بدور المكتبات العامة في الوقت الراهن، حيث إن أبوابها كانت مفتوحة لعامة القراء والباحثين، أو أنها بعبارة أخرى كانت بمثابة إرهاصات لوضع بذور المكتبات العامة في نجد.

أما وضع المكتبات في الجنوب في الفترة التي سبقت حكم الملك عبدالعزيز، فالواقع أن تأثير دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد امتد ووصل إلى المخلاف السليماني، حيث كانت مدينة أبي عريش من أهم المدن العلمية التي حظيت بوجود العلماء والأدباء، وكذلك

---

(١٦) عبدالله الصالح العثيمين. تاريخ المملكة العربية السعودية. الجزء الأول. الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٦هـ، ص ١٨٠.

(١٧) مي العيسى، الحياة العلمية، ص ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

شهدت مدينة صبيا حركة في تأليف الكتب ونسخ المخطوطات، وبذلك تكونت مجموعة من المكتبات الخاصة مثل تلك التابعة لأسرة البهكلي والحكمي والحازمي وآل عاكش وآل شافع وغيرها(١٨).

وكان لأسرة آل الحفظي دور مهم في إغناء الحركة العلمية في منطقة عسير، وتضم المكتبة الخاصة لهذه الأسرة وثائق نادرة عن تاريخ عسير السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وتعد مكتبة الشيخ إبراهيم الزمزمي ابن أحمد الحفظي من أشهر المكتبات في هذه المنطقة، فقد كانت له عناية فائقة بجمع الكتب من شتى مظانها(١٩).

أما الأحساء فقد عرفت المكتبات منذ وقت مبكر، ومن أشهر مكتباتها مكتبة آل عبدالقادر في المبرز، وتمتاز بأنها تحتوي على بعض المخطوطات النادرة، ومكتبة الشيخ أبي بكر الملا، إضافة إلى مكتبة الشيخ عبدالعزيز بن حمد آل مبارك، ومكتبة آل غنام والعمير والعرفج وآل عبداللطيف وغيرهم. ونستطيع أن نلمس ظاهرة الأسر العلمية بشكل واضح في منطقة الأحساء، حيث كانت حريصة على تكوين مكتبات خاصة يتوارثها الأبناء عن الآباء، وهو تقليد انتشر بين العلماء هناك، وحرصوا على صيانته وتنميته(٢٠). وقد استمرت بعض تلك المكتبات في عهد الملك عبدالعزيز، وظلت قائمة تنهض بدور مزدوج (مكتبات خاصة عامة).

ويتضح من العرض السابق أن للمكتبات وبخاصة مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة تاريخًا عريقًا في هذه البلاد، وكان

---

(١٨) محمد بن أحمد العقيلي. تاريخ المخلاف السليماني. الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٢هـ، ص ص ٥٥، ٤٨١، ٤٨٤، وعبدالله أبو داهش، الحياة الفكرية، ص ص ٧٦ - ٧٧، ٨١ .

(١٩) محمد بن عبدالله آل زلفة. مخطوطات آل الحفظي بين الضياع والحفظ. عالم الكتب. مج ٧، ع ٣ (محرم ١٤٠٧هـ)، ص ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢٠) عبدالله ناصر السبيعي. الحياة العلمية والثقافية في الأحساء خلال ثلاثة قرون (١٠٦٠ - ١٣٦١هـ). العصور. مج ٣، ع ٢ (ذو القعدة ١٤٠٨هـ)، ص ٢٨٨ .

لمنطقة الحجاز نصيب الأسد من تلك الكنوز الحضارية، حيث حظيت مكتبات الحرمين الشريفين بأكثر المكتبات الوقفية وأقدمها. ولا ننكر أن بعض المكتبات التي سبق الحديث عنها قد قام في وقته بدور واضح في تنمية الوعي الثقافي بين عامة الناس.

إلا أن الصورة العامة توحي بأن تأثير تلك المكتبات كان ضعيفًا، حيث إن الظروف لم تكن مواتية لإحداث أثر يذكر، والقيام بدور فاعل في هذا المضمار نتيجة لعدم توافر العوامل التي توافرت لعهد الملك عبدالعزيز - سيرد الحديث عنها في السطور اللاحقة - والتي مهدت في مجملها الطريق لتفعيل مسيرة المكتبة، وإثبات وجودها في المجتمع. كما أن أساليب تنظيم المجموعات في العصور السابقة كانت بدائية، ولم يكن هناك اهتمام بطرق الحفظ والصيانة، إضافة إلى أن المباني المخصصة لتلك المكتبات لم تصمم بالشكل المناسب، ولم ترق إلى المستوى الذي يليق بتلك المؤسسات الثقافية، مما يوحي بأن هناك معوقات كثيرة كانت تقف حجر عثرة أمام تطور الحركة المكتبية في تلك الحقبة الزمنية. الأمر الذي حدا ببعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنه لم يكن في المملكة مكتبات بالمعنى الصحيح قبل العهد السعودي، وحتى المكتبات التي وجدت في الحجاز كانت في أغلبها عبارة عن مستودعات تحفظ فيها الكتب، وقليل منها ناله شيء من التطوير، ولم تؤدِ الهدف المنشود لأسباب كثيرة منها تعرض المنطقة بشكل دائم للفتن والحروب مما أثر سلبًا في مسيرة المكتبات(٢١).

العوامل التي ساعدت على إنعاش المكتبات في عهد الملك عبدالعزيز:

لكي نفهم ظاهرة تطور حركة المكتبات في الفترة الزمنية المرسومة للدراسة الحالية بشكل شمولي فينبغي أن نتناول بشكل سريع وموجز

---

(٢١) عبدالله بن محمد الشهيل، فترة تأسيس الدولة السعودية المعاصرة (١٣٣٣هـ - ١٣٥١هـ/ ١٩١٥ - ١٩٣٢م) : دراسة تاريخية تحليلية. الرياض: دار الوطن للنشر والإعلام، ١٤٠٧هـ، ص ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

العوامل الأخرى التي ارتبطت بهذه الظاهرة، ومهدت الطريق لذيوعها وانتشارها. فمن دراسة تاريخ الكتب والمكتبات تبين أن المكتبة ظاهرة معقدة متشعبة الأبعاد، ولا يمكن فهم التطورات المحيطة بها بمعزل عن فهم ما يحيط بالمجتمع كله من عوامل تؤثر سلبًا أو إيجابًا على هذه المؤسسة الثقافية، بما في ذلك العوامل التعليمية والصحية والأمنية والاجتماعية والسياسية.

ومن هذا المنطلق تحسن الإشارة إلى البدايات الأولى للنهضة الشاملة التي مرت بها المملكة في ذلك الوقت المبكر، وموقع الحركة المكتبية في خضم تلك التطورات، وذلك بغرض رسم صورة صادقة للجهود المخلصة التي بذلها الرعيل الأول في غرس نبتة المكتبة على أرض هذا البلد العزيزة، وحرص المسؤولين على نشر المكتبات في مختلف مدن المملكة، وعلى وجه الخصوص حرص القيادة على تنمية دعائم الثقافة ومرتكزات الفكر وأسس الحضارة.

ومن توفيق الله أن شهدت الحركة الثقافية في العهد السعودي بشكل عام تحسنًا ملحوظًا، حيث اهتمت الدولة الجديدة بتطوير ركائز الثقافة، وبدأت البلاد تشهد نهضة شاملة في مختلف المجالات انعكس أثرها إيجابًا على تحسين واقع المكتبات، وتطوير خدماتها، وصيانة مبانيها وتنمية مجموعاتها. وهذه النهضة الشاملة التي أرسى قواعدها الملك عبدالعزيز - رحمه الله - شكلت المنطلق الحقيقي لتطور مسيرة المكتبة، وتفعيل دورها الاجتماعي. ومن المتعارف عليه أن المكتبة بوصفها ظاهرة حضارية لا تنشأ في أي مجتمع لا ينعم بأمن واستقرار وتعليم وحضارة.

ففيما يتعلق بالاستقرار السياسي فقد كان الأمن في عهد الملك عبدالعزيز مضرب المثل، فعم البلاد السلام وتطور العمران، وأصبحت البيئة مهيأة للتعايش مع معطيات الحضارة من مكتبات

وغيرها، ولذا يذهب أحد المؤرخين إلى أن ظهور المكتبة بمفهومها الحديث لم يحدث حقيقة إلا بعد توحيد المملكة على يد القائد المؤسس الملك عبدالعزيز - رحمه الله - حيث كانت الجزيرة العربية قبل ذلك مشغولة بالحروب والمنازعات ويسودها الجهل والتخلف، وهذا يعني أن البيئة لم تكن مهيأة للجو الثقافي والانفتاح على معطيات الحضارة العصرية(٢٢). ومن يقرأ التاريخ بعين فاحصة يجد فيه أمثلة كثيرة تؤيد أن المكتبات ازدهرت في العصور الآمنة وتدهورت في أزمنة الخوف والحروب والقلق.

ويمثل نشر التعليم وفتح المدارس عاملاً آخر من العوامل التي ساعدت على ازدهار حركة المكتبات في عهد الملك عبدالعزيز، ذلك أن زيادة عدد المتعلمين ترتب عليها زيادة الحاجة إلى مصادر المعرفة التي تعين على التعلم المستمر (التنمية الثقافية الذاتية) الذي لا ينتهي عند حد معين بل يتواصل مع الإنسان طوال حياته. وقد أصدر جلالته أمره الكريم بإنشاء مديرية المعارف العامة عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م، وفي عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م تم افتتاح المعهد العلمي السعودي، وبعد ذلك تم افتتاح مدرسة تحضير البعثات عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، ومدرسة دار التوحيد عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٤م، وكلية الشريعة بمكة المكرمة عام ١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م، وكلية المعلمين عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م(٢٣). وترتب على الإنجازات السابقة ظهور المكتبة المدرسية التي أصبح لها كيان ملموس في مباني المدارس.

ولا يقل الإصلاح الاجتماعي أهمية عن العاملين السابقين في وضع البذور الأولى لتطوير الحركة المكتبية في ذلك العهد، فقد بذلت محاولات كثيرة لترغيب البادية في الاستيطان والاستقرار في أماكن حضرية، وتم إرسال الدعاة والمرشدين إلى أماكن تجمعات البادية

---

(٢٢) المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٢٣) عبدالله العثيمين، تاريخ المملكة، الجزء الثاني، ص ص ٣٢٨ - ٣٣١ .

بهدف تعليمهم الواجبات الدينية، وقد كتب لهذه التجربة الإصلاحية النجاح في القضاء على الفقر والجهل والمرض والأمية، مما أوجد بيئة حضارية مهيأة للتعامل مع الكتاب، حيث تحسن مستوى المعيشة، وأصبح هناك وقت من الفراغ يمكن استثماره في القراءة والاطلاع وارتياد المكتبات .

كتب لهذه التجربة الإصلاحية النجاح في القضاء على الفقر والجهل والمرض والأمية

أما العامل الأخير الذي أسهم في تطوير الحركة المكتبية حينذاك فهو الجهاد الفكري للملك عبدالعزيز - على الرغم من انشغاله ببناء الدولة الحديثة وتثبيت كيانها - الذي شمل مظاهر عديدة من بينها إحياء التراث الإسلامي، وطباعة ونشر الكتب القيمة على حساب جلالته وتوزيعها على المهتمين بها(٢٤)، وتشجيع الحركة الأدبية في المملكة، وتطوير حركة الطباعة والصحافة والنشر، وغير ذلك من جوانب النهضة المتكاملة، مما يوحي بأن جلالته - رحمه الله - كان يجاهد على عدة جبهات برغم مهامه العظيمة ومشاغله الكثيرة، وكان جهاده الفكري يسير جنبًا إلى جنب مع جهاده السياسي والعسكري(٢٥).

ونستطيع أن نستشف من الحقائق السابقة أن الملك عبدالعزيز قد حقق في فترة حكمه إنجازات مذهلة في مدة قياسية لم تكن لتتحقق لولا توفيق الله ثم جهاده - رحمه الله - الشاق، ومعاركه الضارية التي كانت تهدف إلى إرساء مجتمع جديد ينضوي تحت راية واحدة. وكان للعوامل السابقة فضل الإسهام في وضع البذور الأولى للنهضة

---

(٢٤) يشكل اهتمام الملك عبدالعزيز بنشر الكتب وبخاصة الكتب الدينية وكتب الدعوة السلفية قضية مستقلة تحتاج بمفردها إلى دراسة تتعمق في أبعادها، وتكشف عن هذه الصفحة المشرقة لتاريخ جلالته.

(٢٥) عبدالرحمن بن سليمان الرويشد. الجهاد الفكري للملك عبدالعزيز. في: بحوث المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦هـ، ص ١٨٩.

المكتبية في هذا البلد. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن ما تنعم به المملكة اليوم من تنوع في المكتبات ومراكز المعلومات ومراصد البحث العلمي وغيرها من المرافق التي تشكل في مجموعها ما يعرف لدى المختصين بنظام المعلومات الوطني (NATIONAL INFORMATION SYSTEM) أو ما يحلو لبعضهم الآخر أن يطلق عليه البنية الأساسية للمعلومات (INFORMATION INFRASTRUCTURE) لم تنطلق في الواقع من فراغ، وليست وليدة الساعة كما قد يتصور بعض القراء، بل إنها غرس الماضي وكفاح الرعيل الأول من جيل الآباء والأجداد، وحق لهم أن يفخروا بما أرسوه من دعائم ثابتة الأركان، وطيدة البنيان.

أهم المكتبات التي نشأت في عهد الملك عبدالعزيز:

كشفت السطور السابقة عن أن التطور الذي حدث في مختلف مجالات الحياة في عهد الملك عبدالعزيز، والنهضة الشاملة التي سادت البلاد قد أسهمت في تعزيز مسيرة المكتبات، وأوجدت قاعدة طيبة لانطلاقتها، والتوسع في إنشائها. ومن أهم المكتبات التي تأسست في ذلك العهد (وفقًا للتسلسل الزمني)، التي استطعنا الوقوف عليها من خلال استقراء المصادر، والرجوع إلى نظم المعلومات الحديثة (السجل الحولي بدارة الملك عبدالعزيز، ونظام الوثائق بمكتبة معهد الإدارة العامة) هي المكتبة العامة بالظهران (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)، والمكتبة العامة ببريدة (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م)، ومكتبة الحرم النبوي الشريف (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م)(٢٦)، ومكتبة مكة المكرمة العامة (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م) التي أنشأتها مديرية المعارف العامة.

---

(٢٦) أنشئت مكتبة الحرم النبوي الشريف بناء على اقتراح تقدم به عبيد مدني عندما كان مديرًا لأوقاف المدينة المنورة، وتتبع هذه المكتبة حاليًا الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين. انظر: يحيى ساعاتي، وضعية المخطوطات، ص ٩١.

ويضاف إلى ما سبق مكتبة الجبيل العامة بالمنطقة الشرقية (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) وكان يطلق عليها آنذاك "مكتبة النشاط الثقافي"، والمكتبة العامة بعنيزة (١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م) التي أشرف على إنشائها وجمع كتبها الشيخ عبدالرحمن السعدي، وهي متاحة لعموم الباحثين وبخاصة طلبة الشيخ محمد⁽٢٧⁾. وهناك أيضًا مكتبة المزاحمية العامة (١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م)، ومكتبة الأمير مساعد بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود (١٣٦٣هـ/ ١٩٤٣م)، وكان مقر هذه المكتبة في قصر سموه، حيث جعلها متاحة للجميع، وحرص على جمع قدر طيب من الكتب والمخطوطات فيها⁽٢٨⁾.

وأيضًا من المكتبات التي أنشئت في عهد الملك عبدالعزيز المكتبة العلمية العامة ببريدة (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) التي تكونت أغلب مجموعاتها عن طريق الإهداء، ومكتبة شقراء العامة التي أنشئت على نفقة الأهالي عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م، والمكتبة العامة في المجمعة التي أنشئت في مباني المدرسة السعودية هناك عام ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م، ومكتبة مكة المكرمة (١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م)⁽٢٩⁾، وقد صدرت موافقة جلالة الملك عبدالعزيز على إنشائها خدمة للعلم وطلابه. ومكتبة الرياض السعودية التي أنشئت عام ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م بناء على توصية تقدم بها الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ للملك عبدالعزيز، وقام الأمير سعود بن عبدالعزيز عندما كان وليًا للعهد

---

(٢٧) سعد عبدالله الضبيعان. إطلالة تاريخية على المكتبات العامة في المملكة العربية السعودية مع دليل شامل لها. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٥هـ، ص ٢٥.

(٢٨) المرجع السابق، ص ٢٥ .

(٢٩) كان للشيخ عباس سليمان قطان أمين العاصمة المقدسة سابقًا فضل في إنشاء مكتبة مكة المكرمة التي خصص لها مبنى مستقل يقع في مدخل شعب بني هاشم. انظر: عبداللطيف بن عبدالله بن دهيش. مكتبة مكة المكرمة. عالم الكتب. مج ٦، ع٤ (ربيع الثاني ١٤٠٦هـ)، ص ٤٩١ .

بافتتاحها(٣٠). وثمة نماذج أخرى تتمثل في مكتبة الحريق العامة التي أسسها الأهالي عام ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م، والمكتبة العلمية الصالحية بعنيزة التي أنشأها الشيخ محمد بن عثمان القاضي عام ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م بمسجد أم خمار، وتكونت نواتها من مكتبة الشيخ محمد بن عثمان القاضي، ومكتبة والده، ومكتبة قاضي عنيزة الشيخ صالح العثمان القاضي، وبعض مكتبات المحسنين(٣١).

وعلى أية حال فإن الصورة العامة التي نخرج بها من استقراء حركة تأسيس المكتبات في تلك الحقبة الزمنية هي أن غالبية المكتبات قد أنشئت بمبادرة من الأفراد والأهالي الذين اتخذوا من مكتباتهم الخاصة نواة للانطلاق نحو المكتبات العامة، وما لبثت الظاهرة أن عمت مختلف أرجاء المملكة حيث وجدت تشجيعًا من القيادة السعودية. إلا أن المأخذ الوحيد على وضع المكتبات آنذاك هو عدم تبعيتها لمؤسسات تضمن لها الرعاية والديمومة والاستمرار؛ مما أضعف من قيامها بالدور المنتظر منها بوصفها مؤسسات ثقافية؛ ذلك أن الرعاية الفردية مهما صاحبها من حسن النية والاجتهاد تظل محدودة بقدرات أصحابها على خلاف الرعاية المؤسسية، فهي لا ترتبط بظروف الأفراد وتوجهاتهم الشخصية. ومن حسن التوفيق أن الدولة قد تنبهت لهذه القضية، وقامت في عام ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م

المأخذ الوحيد على وضع المكتبات آنذاك هو عدم تبعيتها لمؤسسات تضمن لها الرعاية والديمومة والاستمرار

---

(٣٠) كثر الخلاف حول التاريخ الحقيقي لإنشاء مكتبة الرياض السعودية وما إذا كانت هي المكتبة العامة الأولى في مدينة الرياض أم أنها مكتبة الأمير مساعد بن عبدالرحمن. ولمزيد من التفصيلات حول هذا الجانب انظر: سالم بن محمد السالم. المكتبات في عهد الملك عبدالعزيز. الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ، ص ص ١١١ - ١١٤، وسعد عبدالله الضبيعان. مكتبة الرياض السعودية: ماضيها وحاضرها. مجلة جامعة الملك سعود. الآداب. مج ٦، ع ١ (١٤١٤هـ)، ص ٢٤٩ .

(٣١) سعد الضبيعان، إطلالة تاريخية، ص ١٣٦.

بضم أوائل المكتبات العامة والخاصة إلى وزارة المعارف حيث أنشئت فيها إدارة خاصة لهذا الغرض (الإدارة العامة للمكتبات) حرصًا على زيادة العناية بها، وتوفير المستلزمات الفنية والإدارة العلمية المتخصصة.

تطور حركة المكتبات:

مرت حركة المكتبات في عهد الملك عبدالعزيز بمجموعة من الأحداث والتطورات التي نهضت بها وحسنت من واقعها، ونستطيع أن نلمس مدى عناية الدولة حينذاك بهذا الجانب من خلال استقراء الأوامر الملكية السامية، وقرارات مجلس الشورى ومجلس الوكلاء التي صدرت بشأن المكتبات، والتي تعكس مدى اهتمام القيادة بهذا القطاع الحيوي والمهم.

ومن أبرز نماذج تلك التطورات ما قام به الملك عبدالعزيز - رحمه الله - عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م من إصدار أمره بإطلاق اسم مكتبة الحرم المكي الشريف على المكتبة الموجودة في الحرم حيث لم يكن لها قبل ذلك اسم محدد، كما أصدر جلالته في العام نفسه أمرًا ساميًا بالموافقة على جميع متطلبات هذه المكتبة، وأيضًا وجه الملك عبدالعزيز في العام المشار إليه بتشكيل هيئة لتطوير مكتبة الحرم النبوي الشريف، وأسند إليها مهمة الإشراف على المكتبة، وتنظيمها بالشكل الذي يليق بمكانتها. وفي عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م أصدر - رحمه الله - أمرًا ساميًا بالموافقة على اقتراح وزارة المالية بشأن الكتب المحمودية بالمدينة المنورة شريطة استبعاد الكتب المخالفة للكتاب والسنة. كما وافق جلالته عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م على إقامة احتفال رسمي لافتتاح مكتبة الرياض السعودية، وتشريف الأمير سعود للاحتفال(٣٢).

---

(٣٢) سالم السالم، المكتبات، ص ص ١٢٢ - ١٢٣.

وهناك أيضًا مجموعة من التطورات الأخرى التي شهدها قطاع المكتبات خلال الحقبة التاريخية قيد الدراسة، ومن ذلك ما قام به مجلس الشورى عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م بإصدار قرار بالموافقة على شراء كتب وفهارس وجرائد رسمية لمكتبة مجلس الشورى، وقرار آخر صدر عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م بخصوص القيام بتنظيم مكتبة عبدالله بن العباس والصرف عليها من فائض حاصلات أوقاف مسجد ابن عباس، أو من فائض صندوق بلدية الطائف. كما أصدر المجلس نفسه قرارًا في العام المذكور حول الموافقة على طلب خليل بن إسماعيل كتبخانة تعيينه مديرًا لمكتبة الحرم، ووضع الكتب البدعية في هذه المكتبة في دولاب خاص وختمه، ووضع تعليمات خاصة للمكتبة من قبل مجلس المعارف(٣٣).

وتمتد مسيرة التطورات بحيث تشمل مجالات عديدة تخدم قطاع المكتبات في هذا البلد، ومنها على سبيل المثال لا الحصر صدور أمر ملكي عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م بإبقاء وظيفة المكتبة الكبرى في مكة المكرمة بيد مديرها حينذاك محمد بن سياد نظرًا لحسن عقيدته، كما صدر أمر ملكي آخر عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م بالموافقة على تشكيل لجنة يكون أعضاؤها من غير الموظفين يقومون بتنظيم مكتبة السلطان عبد الحميد الواقعة بجوار المسجد الحرام، واقتراح سبل التعريف بخدماتها. وإضافة إلى هذه الأوامر الملكية فقد أصدر مجلس الشورى مجموعة قرارات تنظم الحركة المكتبية، وتقنن مسيرتها، وتدعم نشاطاتها. ومن ذلك صدور قرار عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م بخصوص الموافقة على اقتراحات وزارة المالية بشأن المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة التابعة لمديرية الأوقاف، وقرار آخر صدر عام ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م حول بقاء مكتبة إدارة مطبعة أم القرى لديها،

---

(٣٣) المرجع السابق، ص ص ١٢٣ - ١٢٤.

وإنشاء مكتبة خاصة بإدارة تحرير جريدة أم القرى، وقرار ثالث صدر عام ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م يتضمن الموافقة على ما جاء بقرار مجلس إدارة المدينة المنورة حول تنظيم المكتبة الأميرية المسماة مكتبة الحرم النبوي. ويضاف إلى ذلك ما قام به مجلس الوكلاء عام ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٣م بالموافقة على طلب وزارة المالية بتأسيس مكتبة لها تضم الكتب القانونية والاقتصادية والثقافية العامة لتكون مرجعًا وقت الحاجة، مع تخصيص نسخة مما يشترى من الكتب وما يشترك فيه من الصحف لمجلس الوكلاء(٣٤).

ولا شك أن التطورات السابقة تحمل في طياتها الكثير من الدلالات والمؤشرات ذات الأهمية في تاريخ المكتبات السعودية، فهي دليل واضح على ما كانت تحظى به المكتبات في ذلك الوقت المبكر من رعاية الدولة وعناية القيادة مما أدى إلى تحسن وضعها في العهد السعودي، حيث نمت مجموعاتها وزادت مقتنياتها بفضل ما تلقته من الإهداءات؛ مما ساعدها على القيام بدورها بالشكل الذي يتناسب مع تطورات العصر. بل إن الملك عبدالعزيز ذاته أهدى مجموعة من الكتب من مقتنياته الخاصة إلى مكتبة الحرم المكي الشريف، ولعله كان يرمي من وراء هذه المبادرة الكريمة إلى أن يكون قدوة للآخرين، ومثالاً يحتذى في المسارعة إلى فعل الخير. وسرعان ما تنافس الناس على إهداء مكتباتهم اقتداء بسلوك قائدهم، وبدأت التبرعات تنهال على المكتبة المذكورة، وضمت إليها مجموعة من المكتبات الخاصة مثل مكتبة الشيخ عبدالحق الهندي، والشيخ عبدالستار الدهلوي، ومكتبة والي الحجاز محمد رشدي باشا(٣٥).

---

(٣٤) المرجع السابق، ص ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٣٥) إبراهيم أحمد حسن كيفي. مكة المكرمة. الرياض : الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ، ص ١٠٣ .

ولم يقتصر نطاق تطوير الحركة المكتبية على المكتبات التي وجدت في عهد جلالته رحمه الله، بل إن الدائرة اتسعت لتشمل - كما سبقت الإشارة - تلك التي وجدت قبل عهده، وذلك مثل مكتبة عارف حكمت، والمكتبة المحمودية، ومكتبة عبدالله بن العباس وغيرها، وبخاصة أنها تحتوي على مخطوطات ومطبوعات في مختلف الموضوعات وبمختلف اللغات الفارسية والجاوية والتركية والهندية. بيد أن جلالته اشترط أن يستبعد من مقتنياتها الكتب المخالفة للدين، أو التي تحمل أفكارًا هدامة.

ذلك أن الملك عبدالعزيز - رحمه الله - كان يعتقد أن المحافظة على إرث الماضي جزء من جهاده الفكري، ولذا فقد سارع إلى احتضان تلك المكتبات، وأصدر توجيهاته السامية بشأن تطويرها، وتنمية مجموعاتها، وتحسين خدماتها. وهذا التصرف الحكيم لجلالته يعكس ما كان يتمتع به من عقلية راجحة قادرة على التعامل مع مقتضيات الأمور، حيث بادر إلى توظيف تلك الكنوز الحضارية في تطوير الدولة الحديثة. ويؤيد هذه الحقيقة ما ذهب إليه أحد الباحثين من أن المكتبات في المملكة "تعرضت قبل العهد السعودي بربع قرن للغزو والنهب والسرقة، وفقدنا معظم ذلك التراث الخالد، حتى إذا جاء العهد السعودي بذل خير جهوده لحفظ ما بقي وصد العدوان عنه، وأصبح لدينا من النوادر ما يسعنا أن نفاخر بها في مجال المفاخرة، ولولا العهد السعودي ويقظة حكامنا وغيرتهم على تراث الفكر العربي والإسلامي لذهبت البقية الباقية"(٣٦).

وقد أثار هذا الأسلوب الحضاري لجلالته انتباه كثير من الباحثين والمفكرين الذين أشادوا بموقفه الرائد في هذا الصدد، حيث لم يتعرض العهد الجديد لتلك المكتبات بأي أذى، بل إنه عمل جاهدًا

---

(٣٦) أحمد عطار، قطرة من يراع، ص ٦٠ .

على تنميتها وصيانتها والحفاظ عليها بما يليق بأهميتها، وفي هذا السياق تقول إحدى الباحثات: إن الدولة السعودية لم تتعرض "للكتب المحفوظة في تلك المكتبات رغم أن بعضها قد يتعارض مع الدعوة السلفية، واكتفى الملك عبدالعزيز بتزويد هذه المكتبات بالكتب التي تؤيد المذهب السلفي، والتي لم يكن النظام السابق يسمح لها بالحفظ في المكتبات"(٣٧).

ولقد ترتب على التطورات السابقة مجموعة من التغيرات في بنية المكتبة السعودية وتجهيزاتها من حيث الخدمات، ووسائل الحفظ، وعرض الكتب على رفوف مفتوحة بعد أن كانت تحفظ في صناديق ودواليب مغلقة، ويتاح استخدامها لعدد محدود من الباحثين. وأصبحت المملكة تشهد حركة توسع مكتبي شملت جميع مناطقها، حيث إن الدولة كانت حريصة على إنعاش جو المكتبة، وجعلها ذات دور فاعل في خدمة الثقافة وتعضيد الفكر.

وقد تزامن هذا التحسن في بيئة المكتبات مع ما كانت المملكة تشهده آنذاك من عناية بالعلم، ورغبة في إحياء حركة التراث الديني، ونشاط حركة الطباعة، وتشجيع التأليف ودعم المؤلفين مما مهد لتحقيق نهضة علمية وفكرية شاملة، وشكل رافدًا لتنمية المكتبة السعودية. ذلك أن جهاد الملك عبدالعزيز - على الرغم من شواغل الحكم والسياسة - لم يقتصر على الجانب السياسي والعسكري كما قد يتصور بعض المطلعين؛ بل إنه شمل الجانب الفكري(٣٨) الذي اتسع

> **إن جهاد الملك عبدالعزيز لم يقتصر على الجانب السياسي والعسكري بل شمل الجانب الفكري**

---

(٣٧) نازك زكي إبراهيم أحمد. التكوين السياسي والاجتماعي للمملكة العربية السعودية: ١٩٠٣ - ١٩٣٢م. رسالة دكتوراه. قسم التاريخ بكلية البنات - جامعة عين شمس، ١٤٠٦هـ، ص ٢٨٨ .

(٣٨) للأسف أن موضوع الجهاد الفكري للملك عبدالعزيز لم يحظ بما يليق بأهميته من بحوث ودراسات حيث إن جل الكتابات تمحورت حول القضايا العسكرية =

مداه ليشمل محاربة الجهل، ومحو الأمية، ونشر المعرفة. وكان من ثمرة هذا الجهاد الفكري إقبال الناس على ينابيع الثقافة، وفي مقدمتها المكتبات.

كما ترتب على التطورات السابقة ظهور أنواع عديدة من المكتبات التي تتفاوت في جوانب كثيرة من بينها طبيعة المستفيدين، ونوع المجموعات، ونمط الخدمات المقدمة، والأهداف المزمع تحقيقها، والتبعية الإدارية، وغير ذلك من الجوانب الأخرى. ويمكن القول: إن أبرز أنواع المكتبات التي كانت قائمة في ذلك العهد ما يأتي :

١ - مكتبات المساجد :

وقد كانت سابقة في الظهور على ما عداها من أنواع المكتبات الأخرى، وهذا أمر طبعي إذا أخذ في الحسبان أن الناس قد اعتادوا على أن يودعوا كتبهم في المسجد بوصفه المكان الأول للتعليم. ومن أبرز نماذج مكتبات المساجد التي كانت قائمة في عهد الملك عبدالعزيز مكتبة الحرم المكي الشريف، وتمتاز بأن مجموعاتها من الكتب النادرة والمخطوطات النفيسة، وأنها تنمو بشكل كبير نظرًا لكثرة ما يهدى إليها من حجاج بيت الله الحرام، ولكونها ملتقى كثير من العلماء والمفكرين الذين يفدون إلى البيت الحرام للحج أو العمرة أو الزيارة، ومرت هذه المكتبة بمراحل وتطورات عديدة إلى أن استقرت على وضعها الراهن(٣٩).

= والسياسية وأهملت القضايا الفكرية مع أن التاريخ مليء بالشواهد التي تثبت هذا النوع من الجهاد ومنها المجلس العلمي الذي كان جلالته يعقده بشكل يومي حتى أيام الحروب. ولعبدالرحمن الرويشد بحث في هذا الجانب بعنوان "الجهاد الفكري للملك عبدالعزيز" (سبقت الإشارة إليه) يوضح مدى الجهود الصادقة التي قام بها جلالته في سبيل تأصيل الحالة الثقافية والفكرية في الجزيرة العربية.

(٣٩) للحصول على المزيد من التفصيلات بشأن نشأة مكتبة الحرم المكي الشريف، ومراحل تأسيسها، والتطورات التي مرت بها، انظر: محمد خضر عريف. تاريخ مكتبة الحرم المكي. عالم الكتب. مج ٤، ع ٤ (ربيع الثاني ١٤٠٤هـ)، ص ٥٤٦ .

وقد سبقت الإشارة إلى أنه كان للملك عبدالعزيز - رحمه الله - دور في تحسين واقع هذه المكتبة، حيث أمر عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م بتغيير اسمها إلى "مكتبة الحرم المكي الشريف"، وعلى إثر التسمية الجديدة نال المكتبة الكثير من التحسينات في الخدمات والمجموعات. ذلك أنها كانت قبل ذلك مكتبة صغيرة متواضعة تتكون من مجموعة من المصاحف وخزائن الكتب، موضوعة في صناديق أو على رفوف داخل دواليب مغلقة.

وثمة نموذج آخر يندرج تحت مظلة مكتبات المساجد، وهو مكتبة الحرم النبوي الشريف التي لا تقل أهمية عن سابقتها، وتمتاز أيضًا بما تضمه من نفائس المطبوعات والمخطوطات التي حصلت عليها عن طريق الإهداء والوقف. كما تمتاز أيضًا بأنه كان يوجد بها مكان مخصص لتجليد الكتب، وفهرس مكتوب بخط اليد(٤٠).

أما النموذج الثالث لمكتبات المساجد التي كانت قائمة في العهد الذي هو محط الدراسة فهو مكتبة الجامع الكبير بعنيزة التي تعرف بالمكتبة الوطنية، وقد قام الشيخ حمد بن سليمان البسام بإيداع حوالي ٢٠٠ مجلد من الكتب ذات الطبعات القديمة لهذه المكتبة(٤١). ويتمثل النموذج الرابع في مكتبة مسجد عبدالله بن العباس التي تمتاز بما يتوافر فيها من بعض الشواهد الحجرية النادرة والموغلة في القدم حيث تبرز روعة الخطوط الإسلامية من آيات قرآنية وأحاديث نبوية، كما تمتاز بكثرة ما يتوافر فيها من المخطوطات والكتب الدينية والتاريخية. أما النموذج الخامس لمكتبات المساجد فيتمثل في المكتبة العلمية الصالحية بعنيزة التي كانت تشغل غرفة في مسجد أم خمار،

---

(٤٠) حمادي التونسي، المكتبات العامة، ص ٤٧، ١٨٨ .

(٤١) حمادي بن علي، المكتبات الوقفية، ص ٢٤.

وتتكون مجموعات المكتبة في الأصل من وقف مؤسسها الشيخ صالح بن عثمان القاضي وأعيان مدينة عنيزة وعلمائها(٤٢). والنموذج السادس والأخير لهذا النوع من المكتبات هو المكتبة العلمية العامة ببريدة التي تأسست عام ١٣٥٠هـ بجامع بريدة، وتحتوي على أمهات الكتب المخطوطة والمطبوعة التي وقفها أصحابها بغية تعميم فائدتها على طلبة العلم، وتكونت النواة الأولى من مكتبة الشيخ فوزان السابق الفوزان والشيخ عيسى بن رميح والشيخ عمر بن سليم (٤٣).

٢ - المكتبات الخاصة:

تقف مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة أنموذجًا رائدًا للمكتبات الخاصة

انتشرت في المملكة ظاهرة المكتبات الخاصة التي ينشئها أصحابها من العلماء والأغنياء أو من الأسر العلمية المعروفة، وينفقون عليها من أموالهم الخاصة. وتقف مكتبة الملك عبدالعزيز آل سعود الخاصة أنموذجًا رائدًا في هذا المضمار، حيث حرص جلالته من منطلق اهتمامه بالمعرفة على تكوين مكتبة خاصة تضم مجموعات من الدوريات والكتب المطبوعة والمخطوطة التي تتناول مختلف جوانب المعرفة البشرية. وكانت هذه المكتبة في البداية تحتل جزءًا من قصر المربع، ثم ألحقت بالمستودع الخاص بكتب جلالته، وأخيرًا استقرت في دارة الملك عبدالعزيز التي عملت على صيانتها وترميمها، وقامت بوضعها في قاعة مستقلة، وأعدت ما يلزمها من المعالجة الفنية والفهارس والقوائم البيبليوجرافية(٤٤).

---

(٤٢) المرجع السابق، ص ٧٩ .

(٤٣) المرجع السابق، ص ٧٨ .

(٤٤) لمزيد من التفصيلات حول مكتبة جلالته الخاصة انظر: فهد السماري، مكتبة الملك عبدالعزيز، ١٤١٧هـ (سبقت الإشارة إليه) .

وتعكس الموضوعات التي تحتوي عليها مكتبة جلالته سعة اهتماماته العلمية وتنوع مصادر ثقافته، وتكمن أهميتها الحقيقية في أنها تضم العديد من نفائس الكتب، منها ما طبع منذ أكثر من مائة عام، إضافة إلى مخطوطاتها النادرة التي ورثها الملك عبدالعزيز عن آبائه وأجداده. وقد وكل أمر القيام بتنظيم المكتبة ووضع كتبها في أماكنها الصحيحة إلى العالم رشدي بن صالح ملحس، وكانت المكتبة تفتح أبوابها عند حضور الملك عبدالعزيز إلى القصر وتغلق عند انصرافه. ولم تكن المكتبة خاصة بالمفهوم التقليدي، بل إنها كانت متاحة للعامة، وبخاصة المستشارون، ومن يعملون حول الملك، إذ كان يسمح لهم باستعارة موادها والإفادة من مقتنياتها(٤٥). والواقع أن حرص جلالته على تكوين مكتبة خاصة ترافقه في حله وترحاله دليل على أصالة الجانب الفكري في حياته، ويقال: إنه كان دقيقًا في اختيار محتويات مكتبته، وكان يستشير العلماء في انتقاء الكتب النافعة.

ومن النماذج الأخرى لهذا النوع من المكتبات التي كانت قائمة في عهد الملك عبدالعزيز مكتبة الشيخ إبراهيم الختني التي تمتاز بكثرة مخطوطاتها(٤٦)، وبكونها مفتوحة لعامة الباحثين، وضمت محتويات هذه المكتبة في الآونة الأخيرة إلى مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمدينة المنورة. وثمة نموذج آخر للمكتبات الخاصة هو مكتبة السيد صافي العلوي التي وقفها عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م، وكانت تقوم بوظيفة المكتبة العامة في حياة مؤسسها، حيث خصص

---

(٤٥) عبدالرحمن بن سليمان الرويشد. مكتبة القصر الملكي في المربع. جريدة الرياض. س ٣٥، ع ١٠٩٥١ (٢٤ صفر ١٤١٩هـ)، ص ٣٧ .

(٤٦) كان الشيخ الختني نفسه مهتمًا بالمخطوطات وعلى دراية بعدد من اللغات، ولذا تم تعيينه عام ١٣٨٢هـ على وظيفة معرّف للكتب النادرة والمخطوطات ومترجمًا للغات الفارسية والتركية والأوردية في المكتبات الواقعة حول الحرم النبوي الشريف. انظر: حمادي بن علي، المكتبات الوقفية، ص ١٢ .

لها مكانًا عامًا لاستقبال المرتادين، وخصص لها وقفًا بغرض الصرف عليها.

وهناك نموذج ثالث يتمثل في مكتبة الشيخ عبدالرحمن المحيميد ذات المجموعات القيمة من المطبوعات ونوادر المخطوطات التي تتناول مختلف العلوم الإنسانية، وقد قام ورثة الشيخ بعد وفاته - رحمه الله - بإهداء مكتبته إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. أما النموذج الرابع فيتمثل في مكتبة الأمير عبدالله بن عبدالرحمن آل سعود التي تعد من أغنى المكتبات الخاصة وأكثرها تنوعًا، حيث بذل صاحبها جهدًا كبيرًا في الحصول عليها عن طريق الشراء والإهداء، وهي تحتوي على ٣٥٧٤ عنوانًا تقع في ٦٠٠٠ مجلد تقريبًا تتناول مختلف الموضوعات.

ويتمثل النموذج الخامس من نماذج المكتبات الخاصة في مكتبة الشيخ عبدالستار الدهلوي، وتحتوي على ٧٧٥ مخطوطة بعضها منسوخ بخط الشيخ نفسه، وكان الشيخ الدهلوي قد وقف مكتبته على طلاب العلم، ومن ثم ضمت إلى مكتبة الحرم المكي الشريف بعد وفاة صاحبها بغرض تعميم الانتفاع بها، ووضعت في جناح خاص بها(٤٧). وهناك نموذج آخر هو مكتبة الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ الذي استطاع بحكم تكوينه العلمي ونشأته في بيت عريق تكوين مكتبة غنية بمقتنياتها النادرة، ومن بينها كتاب بخط الشيخ سليمان بن محمد بن عبدالوهاب(٤٨). وقد قام ورثة الشيخ بعد وفاته رحمه الله بإهداء مكتبته إلى جامعة الملك سعود التي قامت بدورها بوضعها في قاعة تليق بأهميتها في المكتبة المركزية، كما أصدرت قائمة ببليوجرافية شاملة لما تضمه المكتبة من مجموعات(٤٩).

---

(٤٧) خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة، ص ١٠٣٦ .

(٤٨) المرجع السابق، ص ١٠٤٣ .

(٤٩) جامعة الرياض. فهرس مكتبة عمر بن حسن آل الشيخ. الرياض: الجامعة، ١٤٠٠هـ.

ويدخل أيضًا في نطاق المكتبات الخاصة التي كانت قائمة في ذلك العهد مكتبة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ التي تحتوي على مطبوعات دينية، إضافة إلى بعض المخطوطات التي تم الحصول عليها عن طريق الإهداء والوقف، وتكمن الأهمية الحقيقية لهذه المكتبة في أنها شكلت النواة الأولى لمكتبة الرياض السعودية، حيث كان الشيخ محمد نفسه مشرفًا عليها(٥٠). ويضاف إلى ما سبق مكتبة محمد نصيف أحد أدباء جدة البارزين، وتمتاز بأنها تحتوي على الصحف العربية والتركية القديمة والحديثة، والمخطوطات التي يزيد عددها على ٢٠٠ مخطوط، وأنها كانت متاحة لعموم القراء الراغبين في العلم. وقد أعد الشيخ نصيف نفسه فهرسًا لمكتبته كتبه بخط يده، وكان مصير هذه المكتبة إهداءها إلى جامعة الملك عبدالعزيز التي احتفظت بها في المكتبة المركزية(٥١).

٣ - المكتبات العامة :

هناك مجموعة من المكتبات العامة التي كانت قائمة في عهد الملك عبدالعزيز، وهي في الواقع لم تترجم المفهوم الحقيقي للمكتبة العامة، حيث كانت متواضعة في إمكاناتها وخدماتها إلا أنها على أي حال كانت الخطوة الأولى في بلورة هذا النوع من المكتبات في المملكة. ومن أبرز نماذج المكتبات العامة حينذاك مكتبة الرياض السعودية التي تكتسب أهميتها من كونها أول مكتبة عامة تنشأ في منطقة نجد بشكل رسمي، إضافة إلى ما كانت تحويه من المقتنيات النادرة، وكانت الكتب موضوعة على أرفف مغلقة، ولم يكن يسمح للقراء بالوصول إلى المخازن، وإنما يجلسون في قاعة للقراءة تحتوي

---

(٥٠) حمادي بن علي، المكتبات الوقفية، ص ٢١ .

(٥١) عبدالقدوس الأنصاري. موسوعة تاريخ مدينة جدة. المجلد الأول. ط ٣. القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٤٠٢هـ، ص ٥٢٣.

على عدد من المناضد والمقاعد يتصدرها مكتب موظف الإعارة الداخلية. وكان فهرس مكتبة الرياض السعودية عبارة عن سجلات مكتوبة بخط اليد وموضوعة في قاعة القراءة، وتشتمل على بيانات تتعلق بعنوان الكتاب وعدد أجزائه واسم المؤلف ورقم الكتاب الخاص. ولم تكن المكتبة تستخدم نظامًا معينًا للتصنيف حيث تدمج الكتب مع بعضها دون مراعاة موضوعها، ولم يكن يسمح بالإعارة الخارجية(٥٢).

وكان من ضمن مجموعات مكتبة الرياض السعودية كتب وقفها أمراء آل سعود وغيرهم، ومنها وقفيات الأئمة تركي بن عبدالله، وفيصل بن تركي، وعبدالله بن فيصل، إضافة إلى وقفيات عديدة للملك عبدالعزيز. ولقد بذل المشرف على المكتبة آنذاك الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ جهودًا كبيرة للحصول على المخطوطات الفريدة في شتى صنوف المعرفة، وبخاصة في العلوم الشرعية وفي الفقه الحنبلي على وجه الخصوص.

وثمة نموذج آخر للمكتبات العامة في ذلك العهد يتمثل في مكتبة عارف حكمت التي كانت في الأصل مكتبة وقفية خاصة إلا أنها في الواقع كانت تمارس مهام المكتبة العامة، وتتيح استخدامها لجمهور الباحثين. ومما امتازت به حسن ترتيبها ونظافتها وكونها غنية بنوادر المخطوطات ونفائس المطبوعات في مختلف اللغات(٥٣). وكان يقدم للمستفيدين فيها الورق والأقلام مجانًا، ويوفر لهم الجو الهادئ الذي يساعد على القراءة والاستيعاب. وهناك نموذج ثالث في هذا الصدد هو المكتبة العامة بعنيزة التي تمتاز بتنوع مجموعاتها، حيث كان من ضمنها الجرائد السعودية المبكرة، ومجلات وكتب مخصصة للأطفال، ومؤلفات كبار الأدباء العرب، كما

---

(٥٢) سعد الضبيعان، مكتبة الرياض، ص ٢٥٨ .

(٥٣) عبدالله الشهيل، فترة تأسيس، ص ٢٤٦ .

تمتاز أيضًا بأنها كانت تسمح بالإعارة الخارجية حيث وضعت سجلاً خاصًا لرصد أسماء المستعيرين، وتقدم القهوة والشاي مجانًا للمرتادين.

أما النموذج الرابع في سياق المكتبات العامة فهو المكتبة المحمودية التي أنشأها السلطان محمود الثاني العثماني عام ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١م، ووقفها على طلبة العلم بالمدينة المنورة. وكان مقر المكتبة في الجهة الغربية من الحرم النبوي الشريف بباب السلام، ومن ثم نقلت إلى داخل الحرم النبوي. وهي تضم ٣٣١٤ مخطوطًا، و ٤٣٩١ مطبوعًا، وفي الآونة الأخيرة ضمت المكتبة المحمودية إلى مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمدينة المنورة.

وهناك أيضًا مكتبة عامة أخرى لا تقل أهمية عن سابقاتها، وهي مكتبة مكة المكرمة التي كان للملك عبدالعزيز - رحمه الله - دور لا ينكر في دعمها وتعزيز مسيرتها، حيث وافق على منح الأرض التي أقيمت عليها(٥٤). ونظرًا لقرب المكتبة من الحرم المكي الشريف فهي تمتاز بكثرة مرتاديها من المواطنين والمقيمين والحجاج والمعتمرين، كما تمتاز بما تضمه من المخطوطات والكتب النادرة، منها نسخة نادرة من القرآن الكريم مكتوبة بخط اليد، كما تضم أهم المكتبات الخاصة لبعض المشهورين المكيين من العلماء والأدباء في القرن الرابع عشر الهجري، إضافة إلى الصحف والمجلات القديمة المحلية والعربية.

٤ - المكتبات المدرسية:

يقتصر مفهوم المكتبات المدرسية على تلك الملحقة بمباني المدارس ومعاهد التعليم العالي بغرض إثراء المنهج الدراسي، وخدمة الطلبة والمدرسين. ولعل من أبرز نماذج هذا النوع من المكتبات في الحقبة

---

(٥٤) عبدالوهاب أبو سليمان، مكتبة مكة المكرمة، ص ص ٢٥ - ٢٦ .

الزمنية محط الدراسة مكتبة كلية الشريعة بمكة المكرمة، وكان للملك عبدالعزيز - رحمه الله - الفضل في إنشائها، حيث أصدر أمره الكريم بفتح الكلية في أوائل عام ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م، وعلى إثر ذلك تم إنشاء المكتبة التي تعد أول مكتبة أكاديمية في المملكة موجهة لتنمية الثقافة الذاتية لمنسوبي الكلية.

وهناك أيضًا مكتبة كلية المعلمين بمكة المكرمة، حيث أنشئت الكلية عام ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م بغرض تأهيل المعلمين وإعدادهم للتدريس في المرحلتين المتوسطة والثانوية، وألحق بالكلية مكتبة تساعدها في أداء مهمتها، وكانت تضم الكتب والدوريات وبعض الخرائط والمجسمات. ويندرج كذلك تحت نطاق هذا النوع من المكتبات مكتبة المدرسة الخيرية بمكة المكرمة، وقد أسس هذه المدرسة محمد حسين خياط عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م بغرض تدريس مختلف العلوم التي يحتاجها الناشئة، وألحق بها مكتبة يعود إليها الطالب والمدرس متى شاء للتزود من مصادر المعرفة المختلفة(٥٥).

وثمة نموذج آخر هو مكتبة المدرسة الصولتية بمكة المكرمة، وكان لهذه المدرسة ومكتبتها دور في تعزيز مسيرة التعليم والثقافة في المملكة، حيث خصص فيها مكان للمطالعة والقراءات الثقافية العامة، وكانت تحتوي على مجموعات غنية تتناول مختلف الموضوعات. ويضاف إلى ما سبق مكتبة مدرسة الفلاح بجدة التي كانت تحتوي على ٥٠٠٠ كتاب بين مخطوط ومطبوع(٥٦)، وتتمحور حول الدين واللغة والأدب والتاريخ، وقد وضعت الكتب في خزائن بعمارة المدرسة(٥٧)، ولم تكن خدماتها مقصورة على منسوبي المدرسة وحدهم بل كانت متاحة للجميع. ويتمثل النموذج الأخير

---

(٥٥) سالم السالم، المكتبات، ص ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٥٦) نازك أحمد، التكوين السياسي، ص ٢٩٠ .

(٥٧) عبدالقدوس الأنصاري، موسوعة تاريخ، ص ٥٢٥ .

في مكتبة مدرسة الفلاح بمكة المكرمة التي احتوت على مكتبة موجهة لخدمة العملية التعليمية، ولمساعدة منسوبي المدرسة على قضاء وقت الفراغ، إلا أن حجم هذه المكتبة أقل بكثير من حجم مكتبة مدرسة الفلاح بجدة. كما وجدت مكتبات مدرسية أخرى متناثرة هنا وهناك منها على سبيل المثال مكتبة معهد الرياض العلمي التي تحتوي على أمهات الكتب الدينية واللغوية والتاريخية والأدبية.

٥ - المكتبات المتخصصة :

لعل مما يميز المكتبات المتخصصة عن الأنواع الأخرى التي سبق الحديث عنها أنها تكون ملحقة بالمؤسسات التي تتبعها، وتقوم بخدمة منسوبيها، وغالبًا لا يسمح للباحثين من الخارج باستخدامها، وتركز على اقتناء المجموعات المتخصصة في مجال أو أكثر من المجالات التي تهمها. ويبدو أن النماذج التي تندرج تحت هذا القطاع نادرة مقارنة بالنماذج التي تندرج تحت القطاعات الأخرى (مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة والعامة والمدرسية)، ومن أبرز ما استطاع الباحث الوقوف عليه من نماذج في هذا الصدد مكتبة مجلس الشورى، ومكتبة وزارة المالية، ومكتبة جريدة البلاد السعودية، ومكتبة مديرية الإذاعة والصحافة والنشر، ومكتبات شركة أرامكو بالظهران.

وقد تكونت نواة مكتبة مديرية الإذاعة والصحافة والنشر عن طريق الإهداء، حيث قامت السفارة الهندية بإهداء خزانة كاملة تحتوي على مجموعة من الكتب القيمة التي طبعتها دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد دكن بالهند. ويقال: إنه كان لهذه المكتبة الفضل في تكوين مكتبة وزارة الإعلام بجدة التي أنشئت فيما بعد(٥٨).

---

(٥٨) المرجع السابق، ص ٥٤ .

أما بالنسبة لمكتبات أرامكو فهي تختلف عن المكتبات الأخرى من حيث توافر المواصفات الحديثة المتمثلة في المكتبيين المؤهلين، والتنظيم، وإعداد الفهارس، ووضع الكتب على رفوف مفتوحة يتاح للجميع تصفحها، وتوافر آلات التصوير وأجهزة قراءة الأفلام، واتباع خطة موضوعية في تنمية المجموعات مع التركيز على ما له علاقة بالمملكة .

وما النماذج آنفة الذكر إلا إشارات موجزة للمكتبات التي كانت قائمة في ذلك العهد، تنهض برسالتها، وتؤدي الدور المناط بها، ولا يساور الباحث الشك في أن هناك مكتبات أخرى لا نعلم عنها لأن المصادر التي بين أيدينا لم تسعفنا بمعلومات كافية في هذا السياق. ذلك أن المصادر في هذا المجال شحيحة، فضلاً عن أنها تبخل بالحديث عن وضع المكتبات آنذاك، وتكتفي بإعطاء إشارات عابرة لا تشفي غليل الباحث المتعطش إلى الوقوف على التفصيلات، والإلمام بحقيقة الوضع الذي كانت تعيشه تلك المؤسسات الثقافية في ذلك الوقت المبكر.

إلا أن الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها هي أن تلك المكتبات بمختلف أنواعها كانت موجودة في صورة كيان ملموس في ذلك العهد، وتمارس مهامها في حدود ما هو متاح لها من إمكانات وتجهيزات. ويتضح من استقراء الوضع الذي كان سائدًا آنذاك أن الخدمات المكتبية بمفهوم العصر الحديث لم تكن تقدم بالشكل المطلوب نظرًا للظروف المحيطة بالمكتبة، وكون القائمين عليها من غير المؤهلين، علاوة على افتقارها إلى أساليب المعالجة الفنية وفق الأسس العلمية المتعارف عليها، حيث لم تكن نظم الفهرسة والتصنيف مطبقة في أغلب المكتبات بل كانت تسير وفق اجتهادات العاملين. ومهما يكن الأمر فإن تلك الملحوظات لا تقلل من شأن

المكتبات التي كانت قائمة في ذلك الوقت، ولا تقلل من الدور الذي نهضت به. والحق يقتضي أن نحكم عليها وفق مقاييس ذلك العصر ومفهوماته السائدة، وما كان يتسم به من انخفاض نسبة المتعلمين، وشيوع ظاهرة الأمية، وصعوبة الظروف الاقتصادية والاجتماعية.

وهذا يعني أنه مهما كان لنا من مآخذ على المكتبات قيد الدراسة فقد كانت البذرة الأولى للحركة المكتبية في المملكة، وأسهمت بدور فاعل في حفظ تراث الوطن، وذلك بفضل الرعاية التي أحيطت بها من قبل القيادة. فلم تستحوذ السياسة وحدها على اهتمامات الملك عبدالعزيز بل كان للفكر والثقافة نصيب واسع من هذا الاهتمام، وهو أمر ليس بمستغرب إذا أخذ في الحسبان أن جلالته قد ولد في بيت علم، وترعرع على حب الكتاب وتقدير المعرفة.

الخاتمة:

إن التاريخ الحضاري للملك عبدالعزيز مهمل أو شبه مهمل فيما عدا إشارات قليلة متناثرة هنا وهناك، الأمر الذي حفز على القيام بهذا العمل العلمي الذي يرصد جانبًا مهمًا من هذا التاريخ، إذ ليس من الحكمة أن نهتم بتاريخ جلالته السياسي ونهمل تاريخه الفكري، وليس من الحكمة أيضًا أن نتحدث عن جهاده العسكري بمعزل عن جهاده الفكري. ومن هذا المنطلق تناولت هذه الدراسة الوضع الذي كانت تعيشه المكتبات في عهد الملك عبدالعزيز، وكشفت النقاب عن مسيرتها، وعن التطورات التي شهدتها خلال تلك الحقبة الزمنية، وذلك من خلال معالجة محاور عدة تتمثل في وضع المكتبات قبل عهد جلالته، والعوامل الحضارية التي ساعدته على النهوض بالحركة العلمية والثقافية، وأبرز المكتبات التي أنشئت في عهده. وقد اعتمد الباحث على المنهج التاريخي،

وعلى استقراء المصادر المنشورة وغير المنشورة ذات الصلة الوثيقة بالموضوع .

وكشفت السطور السابقة عن الكثير من الحقائق المهمة المتعلقة بتطور الحركة المكتبية في عهد الملك عبدالعزيز، والتي يمكن إجمال أبرزها في النقاط الآتية :

١- شهد عهد الملك عبدالعزيز - رحمه الله - إنشاء المكتبات بمختلف أنواعها في المملكة وتطوير خدماتها، وذلك بفضل عناية القيادة بهذا القطاع. ونجد في تاريخ الكتب والمكتبات شواهد كثيرة تؤيد أنه كان للملك عبدالعزيز نفسه اهتمام ملحوظ بالكتب، وعلى وجه الخصوص الكتب الدينية، وعناية فائقة بطلبها وشرائها وتوزيعها على طلبة العلم .

٢- وجدت في عهد الملك عبدالعزيز مجموعة من العوامل التي ساعدت على تطور الحركة المكتبية في مختلف مناطق المملكة، ومنها الأمن والاستقرار السياسي، والإصلاح الاجتماعي، ونشر التعليم، والعناية بالعلم وتقدير العلماء، وتشجيع حركة الطباعة والنشر والتأليف، وغيرها من العوامل الحضارية الأخرى .

٣- على الرغم من صعوبة الظروف التي كانت تحيط بالمجتمع في ذلك العهد فقد شهد ظهور مختلف أنواع المكتبات التي لا يزال بعضها قائمًا حتى الوقت الراهن مثل مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة والمكتبات العامة والمكتبات المدرسية والمكتبات المتخصصة، وبعضها الآخر ضم فيما بعد إلى المكتبات العامة الكبيرة والمكتبات الجامعية.

٤- لم تقتصر حركة تطوير المكتبات في تلك الحقبة الزمنية على تلك التي أنشئت في عهد الملك عبدالعزيز، بل إنها شملت المكتبات التي وجدت قبله مثل مكتبة الحرم المكي الشريف، ومكتبة عارف

حكمت، والمكتبة المحمودية، ومكتبة عبدالله بن العباس وغيرها، حيث أصدر جلالته توجيهاته السامية الرامية إلى تحسين خدماتها.

٥- إضافة إلى الأوامر الملكية السامية، فقد ثبت أن مجلس الشورى ومجلس الوكلاء أصدرا العديد من القرارات المهمة التي أسهمت في تطوير مسيرة المكتبات في ذلك الوقت، وكان لها دور بارز في تفعيل رسالتها وتعزيز دورها الاجتماعي.

وفي الختام تحسن الإشارة إلى أنه كان للمكتبات التي أنشئت في ذلك العهد أو وجدت فيه دور لا ينكر في إثراء الحركة العلمية والثقافية والفكرية في هذا البلد، ودعم حركة البحث العلمي، حيث قدمت خدمة لا تنكر للعلم وأهله، وأسهمت في تطوير المجتمع وتعزيز الثقافة لدى أبنائه، كما أنها حفظت تراث الأمة من التلف والضياع، وكان لها الفضل في وضع البذور الأولى لبنية المعلومات في المملكة، وإرساء دعائم النظام الوطني للمعلومات، الأمر الذي يعني أن ما ننعم به اليوم من مؤسسات المعلومات المختلفة ليست في الواقع وليدة الساعة، بل إنها حقيقة نتاج غرس الماضي وكفاح الرجال المخلصين الذين أرسوا مرتكزات تلك المؤسسات في وقت كانت فيه الظروف في غاية الصعوبة والتعقيد.

والحقائق التي خرجت بها هذه الدراسة تشهد أن الملك عبدالعزيز قد أسهم في تطوير مسيرة المكتبات التي وجدت في عهده، وتبنى في الوقت نفسه المكتبات التي وجدت قبله، حيث احتضن الجهود الماضية وطورها، ووظفها لخدمة العهد الجديد. وليست النماذج السابقة في الواقع إلا إشارات موجزة لما قدر للباحث تلمسه في المراجع التي استطاع الوقوف عليها. وعلى أية حال فقد نتج عن هذا الدعم الصادق من لدن جلالته لقطاع المكتبات إحداث نقلة حضارية في

تاريخ المكتبات السعودية التي بدأت تلبس ثوبًا جديدًا، وتدخل مرحلة جديدة تختلف تمامًا عن ما مر بها خلال العصور السابقة. ذلك أن الملك عبدالعزيز أحس بعد توحيد المملكة تحت راية واحدة أن التطورات التي تشهدها المملكة في مختلف مجالاتها ينبغي ألا تهمل جانب الثقافة والمعرفة الذي يشكل جزءًا مهمًا في المنظومة الحضارية التي كانت تمثل هاجسًا لجلالته.